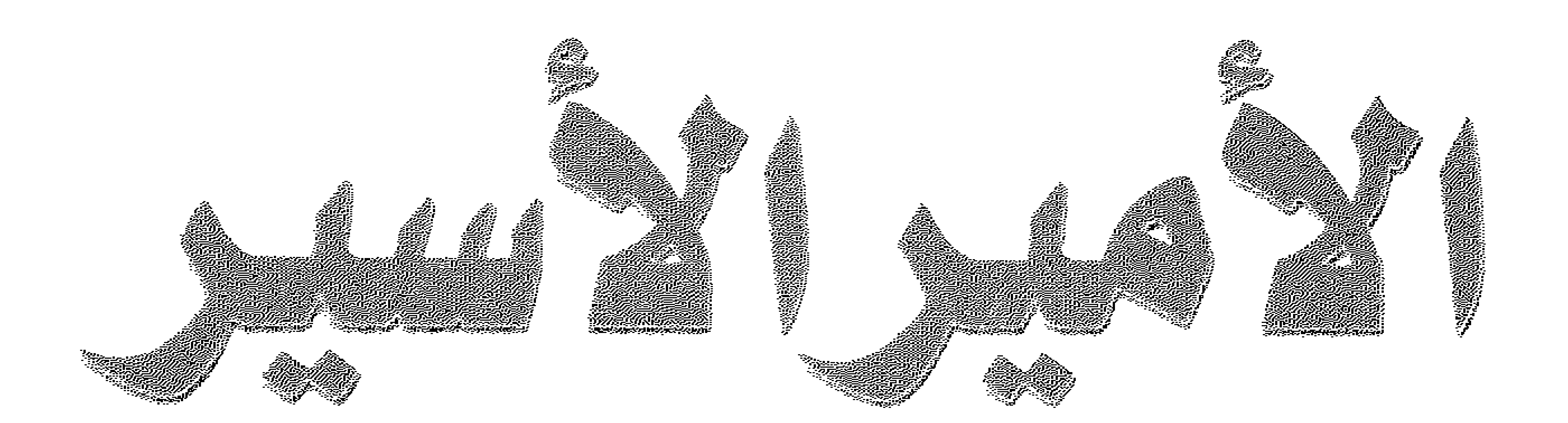
كتاب الشباب



الأمير الأسير

قصة

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

الأمير الأسير

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

الأمير الأسير – الرياض

٤٠ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٧–٩٩٩–٢٠–٩٩٦٠

١– القصص القصيرة العربية – المغرب أ– العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٦٤ ٢٢/٢٨١٢

رقم الإيداع: ٢٢/٢٨١٢ ردمك: ٧–٩٩٩–٢٠–٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

وقفَ قربالُ الجزَّارُ خَلفَ شَجَرةٍ كَبيرةٍ في الغَابةِ الكَثيفة. كانَ يُراقبُ الطريقَ، وينتظرُ أنْ يمرَّ مسافرٌ وحيدٌ لينقضَّ علَيْه. كانَ نصفُه العُلْويُّ عاريًا، وقد انتفخَ صَدْرُه وبانَتْ عضَلاتُ ذراعَيْه القويَّتَيْن. وكانَ مسلَّحًا بسكِّين طَويلةٍ وحَبْلٍ يَنْتَهي بأنشُوطَةٍ(١) كأنشُوطات رُعَاةِ البَقَرِ.

مرَّ في الطَّريقِ الخَاليةِ عددٌ من المسافرينَ، فلَمْ يتحرَّكْ. كانوا راجلين، نحافَ الأجسامِ، فقراءَ.

وفجأةً ظهرَ لَه رجلٌ في حَوالي الثَّلاثين، سمينٌ، مستديرُ الوَجْه، أبيضُ، مُنَعَّمٌ، يركبُ فرسًا فارهةً سوداءَ، يلمعُ جلدُها صحةً وعافيةً. فتهيَّأ للانقضَاضِ علَيْه.

ولاحظَ قربالُ أن هيئةَ الفَارسِ القَادمِ لَم تكُن عاديةً فلَم يسبقْ لَهُ أنْ رَأى مثلَ مَلابسهِ إلا عندَ المُلُوكِ والأمَراءِ، فتردَّدَ في الهُجُومِ علَيه، وانتظرَ لعلَّه يرَى حرسًا أو جُنودًا أوْ حاشيةً ترافقُه، ولكنَّه لم يَر أحداً.

واقتربَ الرجلُ السَّمينُ، فتبيَّنَ لقربَالَ الجَزَّارِ من حركاتهِ القَلقَةِ ونظَراته المنزعجَة أنَّه تائهٌ!

---

(١) أنشوطة: عقدة يسهل انحلالها.

وانتظرَ حتَّى اقتربَ منهُ، ففتحَ الأنشوطةَ ووضعَ السِّكِّينَ بينَ أسنَانه، وخرجَ لَه من خَلْف الشَّجرة. وفُوجئَ به المسافرُ التَّائهُ. ولَم يكَد يهمزُ فرسَه لتسرعَ حتَّى كانَتْ الأنشوطةُ حولَ عُنُقها. وجذبَ قربالُ الحبلَ حتَّى انطبقَتِ الأنشوطةُ على رقبَةِ الفَرَسِ، وسحَبَها صَوْبَ الشَّجَرةِ، وربطَها إلَيْهَا، ثُم ارتَمى على المُسَافرِ السَّمينِ الخَائفِ، وأمسكَ بتَلابيبه، وأنزله من فَوْقِ الفَرَسِ، وهو يستغيثُ، ويستعطِفُ الجزَّارَ كَيْ لا يؤذيَه!

وربطَه من يَدَيْه، وفكَّ رباطَ الفَرَسِ عَنِ الشَّجَرة ووثَبَ علَى ظَهْرِها وانطلقَ يجُرُّه بالحَبْل وراءَه بينَ الأشْجَارِ الكَثيفةِ.

وفي الطَّريقِ قالَ لَه الأسيرُ:

– ألا تعرفُ مَن أنَا؟!

– بلَى، أعرفُ مَن أنتَ. أنتَ حيوانٌ سمينٌ، سأذبحُه وأبيعُ لَحْمَه في السُّوق بثَمَن غَال!

– لا! أناَ لستُ مجرَّد رَجُلٍ سَمينٍ، أنَا أميرُ البلاد!

فضحكَ قربالُ بوَجْهِه البَشعِ ولحيَتهِ السَّوْداءِ، وقاَل غيرَ مصدِّقٍ:

ـ وأنَا أميرُ العبَادِ!

فقالَ الرجلُ السمينُ، محاولاً إقناعَه:

ـ أنَا جادٌّ فيمَا أقولُ!

ومدَّ يدَه إلى قربَالَ، وقالَ:

ـ انظرْ إلى خَاتمي! إنه خاتمُ الإمَارةِ! وانظرْ إلى بَذْلَتي وتَاجي! إذا أطلقْتَني الآنَ، وقبلَ أنْ يعثُرَ علينَا جُنودي وحَاشيتي، أغنيْتُكَ وكفيتُكَ شرَّ هَذه المهنةِ!

فقالَ قربالُ:

ـ لا تُحاول استغفَالي! فأنَا أعرِفُ أنَّ الأمير حينَ يخرجُ للصَّيد تسبقُه الطلائعُ ويحيطُ به الحُرَّاسُ ويسيرُ خَلْفَه الجنودُ.

ـ هذَا صحيحٌ في الأحْوَالِ العاديَّة. ولكنَّني أردتُ أنْ أُحِسَّ بهُدوءِ الغَابةِ ووَحْشَتِها، فأمرتُهم ألا يَتْبعُوني، ولكنْ إذا تأخَّرتُ عَنْهُم فسوفَ ينتشرونَ للبَحْثِ عَنِّي في كُلِّ مكَان.

ـ أنتَ لستَ سميناً ومغفَّلا فقطْ، بل إنَّكَ كذَّابٌ كَبيرٌ كذلكَ! وحتَّى لو كنتَ صادقًا فيما تقولُ وسرَّحتُك، فسأكونَ أنَا أميرَ الحَمْقَى والمجَانين!

وحينَ لَم ينفَعِ المسافرَ قولُ الحقيقةَ أخذَ يفكِّرُ في حيلَةٍ ذكيَّةٍ تُنقِذُه من قَبْضَةِ قَاطعِ الطَّريق.

وبحثَ في ذهْنهِ عن شَيْء فلَم يَجدْ، لَم يكُنْ عقلُه مدرَّبًا علَى التَّفْكيرِ في غَيْرِ ملذَّاته ومَلاهيه. كانَ وزراؤُه وأعوانُه يفكِّرونَ لَه في كلِّ شَأنٍ من شُؤونِ الدَّولةِ، وينسبُونَه إلَيْه.

وفكَّر بحَسْرةٍ كَبيرةٍ في أنَّ الأميرَ إذَا لَمْ يستطعْ إنقاذَ نَفسِه من قَاطعِ طَريقٍ حَقيرٍ فكيفَ يستطيعُ إنقاذَ بَلَدِه وشَعْبِه من عدوٍّ كَبيرٍ؟!

واستسلمَ للقَضَاءِ وسارَ خَلْفَ البَهيمة ينظرُ إلى الأرْضِ حتَّى لا يعثرَ في حَجَرٍ ويسقطَ علَى وَجْهِه، فيجُرَّه الجزَّارُ علَى الأرْضِ، بلا رَحْمةٍ.

* * *

ودارَ شريطُ حَياتِه في ذَاكرتِه بسُرعَةٍ، ولـم يتوقَّفْ إلا عندَ زَوْجَتِه(جُمانَة) الشَّابَّةِ الجَميلةِ، وفكَّرَ في أنَّه لن يأسفَ علَى شَيء إذا ماتَ أسَفَه علَى فراقِهَا!

كانَ قد سمعَ من المسافرينَ إلى مملكَةِ وَالدِها عن جَمالِها وذكَائِها وأدَبِها وقوَّةِ شخصيَّتها، ما جعلَه يتشوَّقُ إلى رُؤيَتها.

وجاءَت الفرصةُ، حينَ زارَ والدُه مملكةَ وَالدِها، فرآها وسمِعَ حديثَها، فتأكَّدَ لَه كلُّ ما سمِعَه عنهَا وأكثرُ.

وأحبَّها حبًّا شديداً، وطلبَ من أمِّه أن تطلبَ من أبيه أن يخطُبَها له.

وصادفَتْ رغبتُه رغبةَ وَالدِه. فذهبَ في مَوكبٍ كَبيرٍ لخطْبَةِ ابنَةِ صَديقِه لابنه، وأخذَ معَه أحمالاً من الهَدايا اللائقَةِ بالأميرَةِ والمُناسبةِ.

وأقامَت المملكتَان الجارتَان عُرسًا عظيمًا، حضرَهُ عددٌ كبيرٌ من المُلوكِ والأمَراءِ والأميرَاتِ، ووزعتْ علَى الفُقراءِ الملابسُ والهَدايا، ونُصبَت الموائدُ العامرةُ لأفرَادِ الشَّعبِ، وصدرَ العفوُ الملكيُّ عَن عَددٍ من المَسجونين.

وكانَ عُرسًا عظيمًا، تزوَّج فيه البَلدان والشَّعْبان، ورقصَ الأحياءُ على مَدافنِ الأمواتِ!

وجاءَت مع العَروسِ امرأةٌ قدَّمَتْها الأميرةُ جمانةُ إلى زَوْجِها، بَدْرِ الزَّمانِ، علَى أنَّها وصيفَتُها ومربِّيتُها ومعلمتُها. وحينَ سألَها بدرُ الزَّمان عمَّاذا تعلِّمُها، قالَت: إنَّها تعلِّمُها الخياطةَ والطرزَ. وضحكَ الأميرُ الشابُّ، وضحكَت الأميرةُ، مجاملةً لَه، ثُم سألَتْه:

- يا تُرَى، ما الذي أضحكَ مَوْلايَ؟

فقالَ الأميرُ:

- آسفٌ، يا عَزيزتي! ولكن الأميراتِ عندَنا لا يتعلَّمْنَ مثلَ هَذه الحِرَفِ، بل يترُكْنَها لعامَّةِ النَّاس.

- حتَّى ولو أحبَبْنَها، وتميَّزْنَ فيهَا بموهبَةٍ خاصَّةٍ؟!

- حتَّى ولو بلَغْنَ فيهَا حدَّ العبقريَّة! فالحِرَفُ اليدويةُ لا تليقُ بالأميراتِ!

- وماذَا تتعلمُ الأميراتُ عندكُم؟

- لا شيءَ! إنَّهنَّ يتعلَّمْنَ كيفَ يلبسْنَ ويَتَزَيَّنَّ، ويُسلِّينَ

أزواجَـهُنَّ الملوكَ والأمراءَ، ولا يفعلْنَ أيَّ شَيْءٍ بأيديهنَّ، حتَّى تبقَى صغيرةً ناعمةً وجميلةً.

فقالَت الأميرةُ:

- في بَلدِنا عكسُ هذَا! كُلُّ الأميرَاتِ والأمرَاءِ يتعلَّمُون حِرَفًا يدويةً من اختيَارِهم، ويكتسبونَ فيها مهارةً عاليةً!

- وما الحكمةُ في ذلكَ؟

- حكَى لَنا أجدادُنا أنَّ هَذه العادةَ تكوَّنَتْ لدَيْنا حينَ أُخرِجْنَا من ديارِنا الأولَى. وكنَّا فيهَا أعزاءَ أغنياءَ مدلَّلينَ، نعيشُ حياةَ الرَّفاهيةِ والفَراغِ، ونحتقرُ العملَ اليدويَّ، ونتركُه للسوقةِ والدَّهْماءِ. وحينَ أخرجَنَا الغُزاةُ من أرضِنَا، نَجوْنا بأنفُسِنا، وتركْنَا وراءَنا أموالَنا وممتلكَاتِنا، وأصبحْنَا غرباءَ فقراءَ، لا نستطيعُ حتَّى كسبَ قُوتِ يَومِنا. ولَولا أنَّ أفرادَ شَعْبنا كانُوا يحبُّونَنا لمتْنَا جُوعًا! فقَد كانُوا يتناوَبُون علَى إطعامِنَا في مَهْجَرِنا ممَّا يكسبونَه من أعمَالِهم اليدويَّة. ولكنَّ جدَّنا الأوَّلَ رفضَ أنْ يعيشَ عالةً علَى أبنَاءِ شَعْبه، وطلبَ منهُم تعليمَه والأمراءَ ما يعرفونَه من حِرَف، فتعلَّمَتِ الأسرةُ الملكيةُ

كلَّ تلكَ الحِرَفِ، واندمجَتْ معَ الشَّعْبِ، وذاقَت حلاوةَ الأكْلِ من عَرَقِ الجَبينِ. ولَم تلبثْ أنْ قَادتْه في حَرْبِ تَحْريرٍ للبلادِ من الغُزاة.

وتنهَّدَتِ الأميرةُ الحسناءُ، مسرورةً بشَرْحِها، وقالَت:

– ومنذُ ذلكَ العَهْدِ البَعيدِ أصبحَ تعلُّم الحِرَفِ اليدويةِ والصِّناعاتِ المنزليةِ تقليداً تعتزُّ به أسرتُنا، وتتوارَثُه أبًا عَن جَدٍّ، حتَّى اليَوْمَ.

وأصغَى الأميرُ بدرُ الزَّمان إلى حَديث عَرُوسه الجَميلة، باهتمَامٍ كَبيرٍ وإعجَابٍ شَديدٍ. وحينَ ختمَتْ حديثَها قالتْ لَه باسمةً:

– أرأيتَ، يا مَوْلايَ؟

فقالَ الأميرُ، مستحسنًا عادةَ قَوْمها:

– يا لَها من فكْرةٍ ذكيَّةٍ! لا بدَّ أن شعبَكم متكتِّلٌ حولَ أُسْرَتكم تكتُّلاً عظيمًا. فإذا كانَ الملوكُ والأمراءُ يُتقنونَ حِرَفَ الشَّعْبِ، ويشعرونَ بالانتمَاءِ إلَيه وإلى طَوائفه المهنيَّةِ فإنَّ الشُّعورَ سيكونُ مُتبادَلاً، والحياةُ مستقرةً سعيدةً!

وأمسكَ بيَدِها الصَّغيرةِ بينَ يَدْيه، وقالَ:

– أريدُ أن تعلِّميني حِرفتَك هَذه.

فضحكَت الأميرةُ، وقالَتْ:

– ولكنَّها حِرفةٌ خاصَّةٌ بالنِّساء، يا مَوْلايَ!

– لا يهمُّك ذلكَ. أحْسَنُ خيَّاطي النِّساءِ رجالٌ!

فابتسمَت الأميرةُ، وقالَتْ:

– صدقتَ، يا مولايَ. إن أكبرَ طَرَّازٍ في بلادِنَا رجلٌ. وهُو الذي علَّمَني الطّرزَ والتفصيلَ والخياطةَ.

مَرَّ كلُّ هَذا في ذهْن الأميرِ الأسيرِ في رَمْشة عَيْن!

* * *

وبعدَ ساعَتَيْن من السَّير في الغَابَةِ المُوحشَةِ وصلَ قربالُ الجزَّارُ بأسيرِه الملكيِّ إلى دَغْلٍ مُلتفِّ الأشْجارِ، وترجَّل عَن الفَرَسِ، وأزالَ شجرةً متشابكةَ الأغْصَان عَنِ الطَّريقِ، فبانَ خلْفَها ممرٌّ طويلٌ مُظلمٌ.

سارَ الرَّجُلانِ فيه مدةً حتَّى وصَلا إلى بَابِ كَهْفٍ مُظْلمٍ. وأشعلَ قربالُ فنارًا كانَ معلَّقاً بدَاخله، وقادَ الفرسَ والأميرَ المربوطَ إلَيْه داخلَ متَاهَاتِه ودُروبِه المتعدِّدةِ حتَّى وصلَ إلى باب سرِّيٍّ. وهناكَ ربطَ الحصانَ، وأمسكَ بحَبلِ الأمير، وقادَه إلى دَاخلِ المكَانِ، فإذَا به منزلٌ رَحْبٌ، قاعَتُه مذبَحٌ مجهَّزٌ بجَميع لَوَازمِ الجزَارة.

وبمجرَّدِ دخُوله شمَّرَ عن سَاعديه، وأخرجَ سكِّينًا كبيرةً، اختبرَ مَضَاءهَا بأحَدِ أظْفَارِه، ثُم ذهبَ إلى المَسَنِّ، وأخذَ يَشْحَذُهَا، وينظرُ إلى عُنُقِ الأميرِ، وكأنَّه مجَرَّدُ ذبيحَةٍ أخْرَى يعتزمُ ذَبْحَها، وقالَ:

– من حُسْنِ حظِّكَ أنَّني لَن أتأخَّرَ طَويلاً في ذَبْحِك حتَّى لا يُعذِّبَك الانتظارُ والحزنُ والخوفُ من المَوْتِ! إلى جَانبِ أنَّ

لَحْمَ المَغْدورِ أطيبُ وألينُ من لَحْمِ المَهْمُومِ والمَغْمومِ.

وأحسَّ الأميرُ بالدَّم ينزحُ عَن دمَاغِه وبقُرْبِ إغمَائه، فقاومَ الضَّعفَ والانهيارَ، وقالَ للجزَّار:

– بكَمْ ستبيعُ لَحْمي، بَعْدَ ذَبْحي؟

– سأكسِبُ فيه ديناراً كاملاً فأنتَ أفضلُ من العِجْلِ، لأنِّي أدفعُ في العجْل نصْفَ دينارٍ؛ أمَّا أنتَ فلَم أدفعْ فيكَ شَيْئاً، وكلُّكَ ربْحٌ خَالصٌ!

– عنْدي لكَ اقتراحٌ، إذا أخذتَ به، ستكسبُ أضعافَ هذَا المبلَغَ!

– ما هو هذَا الاقتراحُ؟

– أن تأخذَ حُلَّتي هَذهِ وسرْجَ فَرَسي، وتبيعُهما في سُوق الأعْيَان بالمَدينةِ، ولا تطلبْ فيهما أقلَّ من مائتَي دينَارٍ ذهبيَّةٍ!

فجحظَتْ عَيْنَا الجزَّارِ، وأعادَ متسائلاً:

– مائتَا دينَارٍ؟!

– نَعَم! مائتَا دينَارٍ، كمَا سمِعتَ! وستغنيكَ عَن الذَّبْحِ مدةً طويلةً!

فعادَ قربالُ إلى سَنِّ سكِّينه، وقالَ غَيْرَ مُصدِّقٍ:

- أنتَ كذَّابٌ! إنَّما تريدُ إنقاذَ جلْدِك والإفلاتَ من الذَّبح، وقد علَّمَتْني حرفَتي هَذه أنَّ طائراً في اليَد خيرٌ من عَشْرة فوقَ الشَّجَرةِ.

- بماذَا سينفعُني الكذبُ، وأنَا أسيرُك؟ إذا اكتشفتَ أنِّي كاذبٌ فستعودُ وتذبحُني!

فهرشَ الجزارُ رأسَه وهوَ يقولُ في سرِّه:

« مائتَا دينَار! إنَّها تستحقُّ المغامرةَ. وماذَا سأخسرُ؟ حتَّى لَو بعتُ الحُلَّةَ والسرجَ بذلكَ الثَّمَنِ فسأعودُ لذَبْحِه هُو كَذلك. »

ثُم قالَ للأمير:

- إذا كنتَ كاذبًا فسأعذِّبُكَ عذابًا أليمًا، قبلَ ذَبْحك!

ولَّما كانَ النَّهارُ ما يزالُ في منتَصَفه، والمدينةُ قريبةٌ، فقَد قَرَّرَ قربالُ الجزَّارُ النزولَ إلى السُّوق للتأكدُّ من صحَّةِ ادِّعاءِ أسيرِه. كان إغراءُ المبلَغِ الماليِّ الكَبيرِ لا يقاوَمُ.

وقبلَ أن يقفلَ قربالُ البابَ علَى الأميرِ، قالَ لَه هذَا محذِّرًا:

- إيَّاكَ أن تتنازلَ عَن دينارٍ وَاحدٍ مِمَّا قلتُ لَكَ!

وأقفلَ قربالُ البابَ علَى أسيره، وذهبَ.

وفي المَسَاءِ عادَ وعيناهُ تلمعَانِ من الفَرَحِ والسَّعَادةِ. وفتحَ البابَ علَى الأميرِ، وأخذَ يصيحُ:

- صدقتَ! صدقتَ! لقد بعتُها بمائتَيْ دينارٍ! وكنتُ أستطيعُ بيعَها بأكْثَرَ، لَو أنِّي انتظرتُ وتمنَّعْتُ؛ فقد كانَ التجَّارُ يتهافَتونَ علَيْها.

فقالَ له الأميرُ:

- ما رأيُكَ في أن تَكْسبَ مثلَ ذلكَ المَبْلَغِ في كُلِّ شَهْرٍ؟!

- كيفَ؟

- تعودُ غَداً إلى المدينةِ، وتَشْتَري لي من سُوقِ النسَّاجينَ قُماشًا وحريرًا وجميعَ أدَوَاتِ التَّفصيلِ والخيَاطةِ والطَّرْزِ، وتعودُ بها إليَّ، وسأصنعُ لكَ مثلَ الحُلَّةِ التي بعتَها وأحسنَ.

وسالَ لُعابُ قرْبَالَ، وقالَ للأميرِ إنَّه يريدُ مُهلةً للتَّفْكيرِ في عَرْضهِ المُغْري، وإنَّه سيؤجِّلُ ذَبْحَه إلى الغَدِ.

وباتَ ليلَتَه يحلُمُ بأكْوَامِ الذَّهَبِ والقُصُورِ والجَوَاري

والخَدَمِ والحَشَمِ والخَيْلِ وغَيْرِها من وسَائلِ التَّرَفِ. وبَدأ ينظرُ إلى الأميرِ بَدْرِ الزَّمانِ ليسَ كمجرَّدِ ذَبيحةٍ سيبيعُ لحمَها ويكسبُ منهَا دينارًا ذهبيًّا واحدًا، بَل كبَقَرةٍ سَمينةٍ حَلُوبٍ أو دجَاجَةٍ سحريَّةٍ تلدُ لَه بيضًا من ذَهَبٍ!

وأخذَ يعاملُه بلُطْفٍ، ففكَّ وَثاقَ يَدَيْه، وقدَّم لَه طعامًا طيِّبًا. وسألَه عَن أنْوَاعِ الأكْلِ والشَّرابِ التي يُفضِّلُها ليُحضِرَها إلَيْه، حتَّى يصفُوَ مزاجُه، ويَحسُنَ إنتاجُه.

وفي اليَوْمِ المُوَالي ذهبَ إلى المَدينةِ، وأحضَرَ له كيسَيْن كبيرَيْن عامرَيْن بكلِّ ما طلبَ، وقادَه إلى غُرْفةٍ علْويَّةٍ بهَا نافذةٌ كبيرةٌ مفتوحةٌ علَى السَّماءِ، تتدفَّقُ منهَا أشعَّةُ الشَّمسِ والهَوَاءُ النقيُّ. وقيَّده من إحْدَى ساقَيْه بسلسلةٍ طَويلةٍ مَشْدُودةٍ إلى الحَائطِ بخُرْصَةٍ تتيحُ لَه حريةَ الحَركةِ والتريُّضِ حينَ يتعبُ. وانهمَكَ الأميرُ في العَمَلِ الفنِّيِّ الدِّقيقِ الذي كانَ يحبُّه ويُتْقنُه بهِمَّة ونشَاطٍ أنسَياه الأسرَ والبُعْدَ عَن المُلْكِ والأهْلِ والأحْبَابِ. وكانَ قربالٌ يجلسُ إلى جَانبِه يتفرَّجُ باهتمَامٍ وافتتَانٍ علَى أصَابعِ الأميرِ وهيَ تدفعُ الإبرةَ وتُخرِجُها بسُرْعةٍ مُدهشَةٍ، تاركةً

خلفَها زخارفَ ومُنَمْنَمات ٍومُخَرَّمات ٍتسحَرُ الألبابَ.

وكانَ الأميرُ بدرُ الزَّمانِ يصحُو مَع الفَجْرِ، فيُصلِّي، ويتناولُ فطوراً شهيًّا، ويجلسُ للعَمَلِ بجدٍّ واجتهَادٍ، وكأنَّ ماردًا تقمَّصَه! وفي آخر النَّهار يكونُ قد أتمَّ طَرْزَ قفْطَانٍ أو حِزَامٍ أو غِطَاء سَرير أو غِلافِ وسَادةٍ، ويسلِّمُ ذلكَ لقربَالَ، ليأخذَه في اليَوم المُوالي لبَيعِه، ويحدِّدُ لَه الثَّمَنَ الذي لا ينبَغي التنازُلَ عَنه. فكانَ يعودُ من المَدينَة سعيداً وقَد أثْقَلَ البهيمةَ بالمُشْتَريات من الطَّعَامِ والشَّرابِ والفَواكه التي يُفضِّلُها أسيرُه.

* * *

وفي اليَـومِ الخَـامسِ صنعَ لَه وِسـادةً من الحَـريرِ الأزْرَقِ السَّماويِّ، مطرَّزةً بخيُوطِ الذَّهبِ، بزخارفَ تَبهَرُ الأبصارَ وتسحرُ الألبابَ... وحينَ نظرَ إلَيْها قربالَ فتحَ فَمَه مبهوراً، وبقي كذلكَ كالتِّمثَالِ!

وفي نهَايةِ النَّهارِ لفَّها لَه حَوْلَ عصًا علَى مقاسِها، وأدخلَهَا في جُعْبَةٍ من فضَّةٍ، وأقفلَ عَلَيها، وسلَّمَها إلَيْه، قائلاً:

– هَذه تحفةٌ ملَكيةٌ، لا تطلبْ عَنْها أقلَّ من ألْفِ دينَارٍ!

فجحظَت عينَا قربالَ، وسألَ غَيْرَ مصدِّقٍ:

– ألْفُ دينَارٍ؟!

فأعادَ الأميرُ مؤكِّداً:

– لا أقلَّ من ألْف دينَارٍ!

– ومَن سيُعْطي هَذا المبلغَ الهائلَ في غِلافِ وسَادةٍ؟

– أنَا أقولُ لَكَ؛ توجَّه رأسًا إلى قَصْرِ السُّلطَانِ، وقُلْ لحَاجبِه إنَّك جئتَ بهديَّةٍ إلى الأميرةِ بَدرِ البدُورِ، وإنَّك لا تريدُ تَسليمَها إلا إلَيْها يداً بيَد.

فظهرَ التردُّدُ علَى وَجْهِ قربَال، وقالَ:

- كيفَ أُهديهَا وأطلُبُ لهَا ثمنًا؟!

فقالَ بدرُ الزَّمانِ:

- لا تقلقْ! فالملوكُ والأمراءُ يكَافِئُونَ على الهَدَايا الجَميلةِ النَّادرةِ بأكثَرَ من ثَمَنِها الحقيقيِّ في السُّوقِ. وسترَى، لَن تعودَ من عنْدها إلا راضيًا!

ثُمَّ أضافَ، وكأنَّه تذكَّرَ شيئًا:

- ولا تَنْسَ أن تُعرِّجَ علَى سُوقِ النَّسيجِ، وتَأتيَني بقمَاشٍ جَديدٍ وما يتبعُه، وبقطَّةٍ صَغيرة، تُؤنسُ وحدَتي، حينَ تتغيَّبُ أنتَ.

ولَم يَغْمَضْ لقربَالَ جفنٌ في تلكَ اللَّيلةِ، من فَرْطِ التوقُّعِ والانفعَالِ. فهُو لَم يسبقْ لَه أنْ رَأى أميرةً ولَو من بَعيدٍ، فمَا بالُك بمقابَلَتِها والتحدُّثِ إليها! وباتَ يتدرَّبُ علَى الكَلماتِ التي سيقولُها لَها والحَركاتِ والانحنَاءاتِ التي يجبُ علَيْه القيامُ بها في حَضْرَتِها..

وأرَّقَه ذلكَ، حتَّى إنه فكَّر في الاكتفَاءِ ببَيْعِ الغلافِ في السُّوقِ ولو بأقلَّ من أَلْفِ دينَارٍ، حتَّى لا يتعرَّضَ لامتحَانِ

مُقَابَلةِ الأميرَةِ! ولكنَّ شهيَّتَه كانَتْ قَد انفتحَت للمَبْلَغ الهَائلِ، فقرَّرَ المغامرةَ والمقامرةَ.

ومعَ خُيوطِ الفَجْرِ الأولَى، نهضَ من فِرَاشِه، وأعدَّ الإفطارَ لنَفْسِه ولأسيرِهِ، وجلسَ يُفْطِرُ معَه، ويسألُه عمَّا ينبغي فعلُه وقولُه بمَحْضَرِ الأميرَةِ. ولقَّنَه الأميرُ بعضَ الجُمَلِ، وعلَّمَه بعضَ الحَرَكاتِ، وقالَ لَه، وهو يُودِّعُه:

– اسألْ عَن البَابِ الغربيِّ للقَصْرِ. قُبَّةُ الأميرَةِ فوقَه، فإذَا أصرَّ الحرسُ علَى أخذ الهديَّةِ منكَ، فارفُضْ تسليمَها إليْهم، واصرُخْ بأعلَى صَوْتِك باسْمِ الأميرَةِ بَدرِ البُدورِ، وأحدِثْ أكبرَ ضَجَّةٍ وفَوْضَى علَى بَابِ القَصْرِ، حتَّى ولو ضَربُوكَ! وحينَ يجتمِعُ عليكَ الحرَسُ والخَدَمُ، اصرُخْ فيهم بأعلَى صَوْتك: «عِنْدي لمَوْلاتي الأميرَةِ سرٌّ مكنونٌ!» وعندها سيُخْبِرُ الخدمُ الأميرةَ بخَبَرِك، فتطلبُكَ إليْهَا في الحَالِ. وفي مَحْضَرِها قُلْ لَهَا: «مَوْلاتي الأميرةُ، جئتُك بهديَّةٍ ما أهْدَاكها أحدٌ من قَبْلُ! وقَد أعطَاني التُّجَّارُ فيهَا آلافَ الدَّنانيرِ، فرفضتُها واحتفظتُ بها لَكِ أنْتِ!»

* * *

ونزلَ قربالُ الجزارُ إلى المَدينة، وقد عرفَ دَوْرَه، ونفضَ عَنْه جميعَ هَواجسِ اللَّيلِ ومخَاوفَه.

وفي مُنْتَصَف الطَّريقِ خامَرَه شكٌّ عميقٌ في سَلامَةِ طَويَّةِ أسيرِه، وفي حَقيقةِ الهديَّة التي أَلَحَّ علَيه في أخْذها إلى الأميرَةِ وتَسْليمِها إليْهَا هيَ بالذَّاتِ ويداً بيَدٍ. وتساءلَ: «يا تُرَى تكونُ زخارفُ الوسَادةِ رسالةً إلى الأميرَة؟!»

وأخرجَها من جُعْبَتِها، وبسطَها وحملَقَ فيهَا بعينَي الأُمِّيِّ الذي لا يُحسِنُ القراءةَ، ثُم أعادَها إلى مَكَانِها، وقد عقدَ العَزمَ علَى شَيْء.

وبمجرَّدِ وُصُولِه إلى المدينَةِ، توجَّه رأسًا إلى إحدَى المدَارسِ، فعرضَ الوسادةَ علَى تلميذٍ توسَّمَ فيه النجابةَ، فقرأَ لَه التلميذُ ما كانَ مكتوبًا عليهَا. ولكنَّه لَم يفهَم منه شيئًا. فقالَ الغلامُ:

– هَذان بيتَان من الشِّعْرِ لشَاعرٍ قَديمٍ، يتغنَّى فيهمَا بجَمَال حَبيبته.

– هذَا كلُّ شيءٍ؟!

وأخرجَ من جَيْبِه فلْسًا، وضعَه في يَدِ الغُلامِ، وقصدَ القصرَ.

وحينَ اقتربَ منه، سألَ عَن البَابِ الغَربيِّ. وحينَ دلُّوه علَيه مَرَّ من أمَامه ونظرَ داخلَ غُرفَةِ الحرَّاسِ، فوجدَهم يقتسمونَ الهَدايا التي جاءَ بهَا الناسُ إلى الأميرَةِ، لتعزيَتِها في فَقْدهَا لزَوْجِها الأميرِ بَدْرِ الزَّمَانِ، وتَهْنئتِها بتولِّي الإمَارةِ بعدَه.

كانَت قبضةُ السُّلطَةِ قد ارتَخَت، وطغَى الحرَّاسُ، وأخذُوا يستولُونَ علَى كُلِّ ما كانَ يصلُ إلى القَصْرِ من هَدَايا وضرائبَ وأتاوَاتٍ.

وعلَى بَابِ غُرفةِ الحراسَةِ وقفَ يطلُبُ أن يرَى الأميرةَ، فنهرَه الحرَّاسُ، فاشتبكَ معهُم في معركَةٍ حاميَةٍ، وعَلا صراخُه بالكلماتِ التي لقَّنَه أسيرُه إيَّاهَا.

وفعلاً، وكمَا قالَ لَه أسيرُه، لم تَمْضِ إلا لحظاتٌ حتَّى انفتحَ بَابُ نَافذَةٍ في القُبَّة، وأطلَّ منْهُ وجهُ امرأةٍ تَغَارُ من جَمَالهِ البدورُ.

وكانَ الحراسُ قد اجتمعُوا علَيْه، وطرحُوه أرضًا، وأخذُوا

يُمرِّغُونَه في التُّراب، ويبحَثُونَ في جيُوبِه عن الهديَّةِ.

وبظُهُورِ الوَجْهِ الجَميلِ، توقَّفَ الحرَّاسُ عن تَعذيبِهم لقربَالَ، ورفعُوا رؤوسَهم نحوَ الأميرَةِ، وعلى وجُوهِهم ابتساماتٌ صفراءُ، فأمرَتِ الأميرةُ بإحضَارِه، فأحاطَتْ به وصائفُها في الحَالِ، وصَحِبْنَه إلى القبَّةِ.

* * *

وحينَ دخلَ عَليْـهـا ونظرَ إلَيـهـا عَن كَـثَب زادَ انبـهـارُه بحُسْنِها وجَمَالِها، وأخذَ يسبِّحُ اللهَ، ويردِّدُ: « سبحانَ أحسَن الخالقينَ! »

ثُم انحنَى، وقبَّل الأرضَ بينَ يدَيْها، وأخذَ يدعُو لَها بطُول العُمْر ودوَام الصحَّة والسَّعادة والهَنَاء...

وحينَ نهضَ، كـانَ قـد نسيَ مَا جـاءَ من أجْله، فـذكَّـرَتْه الأميرةُ بسُؤالها:

- ما جاءَ بكَ إليِنَا أيُّها الرجلُ؟

فتلَعْثَمَ قليلاً، ثُم وضعَ يَدَه على جَيْب صَدْره، فتذكَّر، وأخرجَ الجُعْبَةَ الفضيَّةَ ومدَّها إليهَا، قائلاً:

- جئتُكِ، يا مَوْلاتي، بهَذِه الهديَّةِ.

وأخذَتْها منهُ وصيفةٌ قويةٌ، لتتأكَّدَ من أنَّها ليسَتْ قارورةَ سُمٍّ أو تَحْتَوي عَقْربًا أو حَشَرةً مُؤذيةً. وفتحَتْها بحَذَرٍ، وأخرجَتْ غِلافَ الوِسَادةٍ المطرَّزِ. وما إنْ وقعَتْ عَيْنَا الأميرَةِ علَيه حتَّى دقَّ قلبُها بعُنْفٍ، وأصابَها الدُّوارُ، وأحسَّتْ أنَّها توُشكُ أنْ تسقُطَ! وكانَت واقفةً، فساعدَتْها وصيفَتَان على

القُـعُـودِ، وبادَرت أخْـرَى إلى رَشِّ وَجْـهِـهَـا بمَاء الزَّهْرِ المبـرَّد، وروَّحَتْ أخـرَى علَى وَجـهِـهـا بمروحَـةٍ من ريشِ النَّعـامِ، حتَّى انتعشَتْ.

حـدثَ كُلُّ ذلكَ في وَقْتٍ قَـصـيـرٍ، وقـربالُ الجـزَّارُ ينظرُ حَوَالَيْه، وقد ظنَّ أنَّ مَا يَجري جزءٌ من تَقَاليدِ الاستقبَالِ.

وقعَ مَا وقعَ للأمـيـرةِ لأنَّهـا تعـرَّفَت شغْلَ زَوْجـهـا الحَـبـيب الغَائبِ في غِلافِ الوسَادةِ، خصوصًا بَيْتَي الشِّعر اللذَيْن كانَ الأمـيـرُ بدرُ الزَّمَـانِ يُنْشِـدُهمـا لهَـا، في أوقَـات خُلْوَتِهـمـا وهَنَائِهما، ويغنِّيهمَا لهَا بصَوْتِه الرَّخيمِ على العُودِ. وهُما:

لا تجـزعن فلست أول مـغـرم ** فـتـكـت به الأشـواق والأحـداق

واصبر على هجر الحبيب فربما ** دار الزمـان ولـلهـوى أخـلاق

وجاهَدَت لإخفَاءِ مَشَاعرِها حتَّى لا ترتكِبَ خَطأً تعرِّضُ به حياةَ زَوجِها العَزيزِ للخَطَرِ.

ونظَرت الأمـيـرةُ إلى الغِـلافِ الجَـمـيلِ بإعـجَـابٍ كَـبـيـرٍ، وابتسمَت لقربَالَ، وقالَت لَه:

- هَذه هديةٌ جميلة للغَايةِ! يا تُرَى هِيَ مِنْ صُنْعِ يَدَيْكَ أم

حصلْتَ علَيها بطَريقةٍ مَا؟

ولَم يتوقَّعِ السؤالَ، فارتبكَ قَليلاً، ولكنَّه تداركَ نفسَه، وأجابَ:

– بَل هيَ هديةٌ من أميرٍ صينيٍّ، أنقذتُ طفلَتَه من الغَرَقِ في النَّهرِ، يا مَوْلاتي. وحينَ رأيتُها، قلتُ في نَفسي: «هَذه لا تصلُحُ إلا لأميرَتِنا العَزيزة.»

ثُم أضافَ، مشيراً إلى وَجْهِه ضَاحكًا:

– فلَوْ وضعتُ عَلَيها هذَا الوجهَ الخَشِنَ وهَذِه اللِّحيةَ الشائكةَ، لتمزَّقَتْ في اللَّيلَةِ الأُولَى!

فضحكَتِ الأميرةُ، وقالَتْ لَه:

– لَستَ رجلاً كريماً فقَط، بل وخفيف الظِّلِّ كذلكَ!

وصفَّقَت، فدخلَتْ وصيفةٌ بطبَقٍ من ذَهَبٍ، بدَاخلِه كيسٌ به أكثرُ من ألفَيْ دينَارٍ، فسلَّمَتْه الأميرةُ إلَيه، فأخذَه شاكرًا، وهُو ينحَني ويتراجعُ إلى الخَلفِ، والوصائفُ يشيِّعْنَه إلى بَابِ القَصْرِ حتَّى لا يأخذَ الحرَسُ منه الهديةَ. وطلبَتِ الأميرةُ رئيسَ حَرَسِها الخاصِّ، وأمرَتْه بأنْ يأخذَ كوكبةً من الفُرْسانِ الأشدَّاءِ

ويقتَفي أثرَ الجزَّارِ من بَعيد . وقالَت لَه :

– حينَ يصِلُ إلى مـخـبـئِـه، طوِّقُـوا المكانَ، وأرسلُوا في طَلَبي .

* * *

وضعَ قـربالُ الجـزارُ كـيسَ الدَّنانيرِ في جِـرَاب حـصَـانه، وانطلقَ به يسـابقُ الرِّيحَ، وينظرُ إلى الورَاءِ، ليتـأكَّـدَ من أنْ لا أحدَ يتبعُه.

أمَّا الأميرةُ جُمانةُ فقد فتحَتِ الغلافَ من جَديد، ووضعَتْه علَى وَجْهِهـا، من شـدَّةِ الشَّوقِ إلى زَوْجِهـا، وأخـذَتْ تشـمُّه وتقـبِّلُه. وتأكَّـدَت من أنَّه من صُنْعِ زَوْجِـهـا، من رائحَـةِ العطْرِ التي كـانتْ عـالقـةً به، وأنَّه هُو الذي أرسلَه إلَيْـهـا، لإشـعـارِهَا بوُجُودِه على قَيْدِ الحَيَاةِ، ولطَلَبِ النَّجْدَةِ.

ونادتْ صَـاحب كلابِ القَنْصِ فحضَرَ، وأعطَتْه القُـمَاشَ الذي كَـانَت جعـبـةُ الوِسَادةِ ملفوفةً فيـه، وأمـرَتْه باقـتـفَـاءِ أثَرِ صَاحبها. وقالَتْ لَه إنَّها ذاهبةٌ مَعَه.

* * *

وتوقَّفَ قربالُ الجزَّارُ علَى مدخَلِ الغَابةِ، وقد تصبَّبَ عرقًا، وخرجَ الزَّبَدُ من فَمِ فَرَسِه وكسَا صدْرَها، ونظرَ حوالَيْه فلَمْ يقَعْ بصرُه على شَيء يتحرَّكُ، علَى مَدِّ البَصَرِ. ودخلَ الغابةَ آمنًا مطمئنًّا. ولم يتوقَّفْ إلا علَى بَاب الكَهْفِ المحجُوب عَنِ العُيونِ بالأشْجَارِ والنبَاتَاتِ المتسلِّقة.

وحينَ دخلَ علَى أسيرِه الأميرِ فتحَ الكيسَ الجلديَّ وأفرغَ كُلَّ ما فيه من دنَانيرَ ذهبيَّةٍ لمَّاعة أمامَه، وقد أسكرَتْهُ السعادةُ. وأظهرَ الأميرُ الفرحَ كذلكَ، وقالَ له:

- ألَمْ أقُلْهَا لَكَ؟! منَ الآنَ فصاعداً سنجمعُ جبالَ الذَّهَب!

ثُم طلبَ منه أنْ يحدِّثَه بتفَاصيلِ رحْلَتِه، ولقَائِه بالأميرَةِ جُمانةَ، وقد خفقَ قلبُه شوقًا إليها. فقال قربالُ:

- سأحدِّثُكَ بكُلِّ ذلكَ على العَشاءِ. أنَا الآنَ جائعٌ، وعليَّ أن أُعِدَّ الطعامَ.

* * *

أمَّا الأميرةُ جمانةُ فقَد امتطَتْ صهوةَ جَوادها الأبيضِ، وانطلقَتْ تركضُ خَلفَ كلابِ القَنْصِ التي تشقُّ الرِّيحَ أمَامَ حِصَان مدرِّبِها، في صَمْتٍ... كانَت مُدرَّبةً على الاقتفَاءِ الصَّامتِ، حتَّى لا تُثيرَ انتباهَ طَرائدِها. وكانَت تَعْدُو بثِقةٍ، وَسطَ مجرَى رائحةِ العرَقِ القويَّةِ التي تركَها خلفَه قربالُ الجزّارُ، وكأنَّها تَمْشي في طَريقٍ معبَّدٍ مطرُوقٍ!

ولاحَتْ لَهُم كوكبةُ الحَرَس، وقد توقَّفَتْ عَنِ الاقتفَاءِ، واضطربَ حالُها، وأخذَ كُلٌّ وَاحدٍ من جُنُودِها يُشيرُ في اتِّجاهٍ مُخْتَلفٍ، ونشبَ بينَهُم الخلافُ واللِّجاجُ، ومَرَقَتِ الأميرةُ بجَانبِهم، وصاحَت فيهمْ: «اتبعُونَا!»

وتوغَّلَتِ الكلابُ في الغَابةِ، والفرسانُ وراءَها. وطلبَ رئيسُ الحَرَسِ من سُوَّاسِ الكلابِ ربطَها وكَبْحَ سُرعَتِها، والمَشْيَ خَلْفَها علَى الأقدامِ، حتى لا تسبِقَ إلى المكَانِ، وتُفسِدَ المفاجأةَ.

وترجَّل جميعُ الرِّجالِ، وربطُوا الخيلَ إلى الأشْجَار، وتركُوهَا خَلْفَهم حتَّى لا يصلَ إلى قربَالَ صوتُ وَقْعِ سَنَابكها

أو صَهيلُها. وبدأت الكلابُ تلهَثُ وتزحرُ وتتقدَّمُ ساحبةً سُواسَها خَلْفَها. وكانَت تلكَ علامةً علَى اقترابِهم من المكَانِ.

وتوقَّفَتِ الكلابُ عندَ الدَّغَلِ الأخضَرِ الكَثيفِ الذي يحجُبُ مدخلَ الكَهْفِ، وكأنَّه حائطٌ أخضرُ. وأدخلَ الكلبُ الرائدُ رأسَه بينَ الأغصَانِ وتسلَّلَ إلى داخلِه، وتبعَه سائسُه. ودخلَ خَلْفَهُما قائدُ الحَرَسِ شاهراً سيفَه، وقَد تشنَّجَتْ أعصابُه استعداداً للقتَالِ.

* * *

وفي دَاخل الكَهْف كانَ قربالُ يُعِدُّ وجبةً شهيَّةً، ويُدندنُ بأغنيَةٍ من أغَاني قريَتهِ. وفجأةً، توقَّف، ورفعَ رأسَه، وحبسَ أنفاسَه، وأرهفَ سمعَه... أحسَّ بغَريزةِ الحيوَانِ بانقطَاعِ تيَّارِ الهَواءِ داخلَ التَّجاويفِ والممرَّاتِ المؤدِّيةِ إلى الكَهْفِ، فتناولَ خِنجراً، وتسلَّقَ درَجاتٍ إلى كُوَّةٍ تُطِلُّ علَى الممرِّ.

وتأكَّدَت أسوأُ مخَاوِفه حينَ لاحَ لَه، من بَعيدٍ، كَلْبُ قَنْصٍ يسحبُ سائسَه خَلْفَه، وفكَّرَ بسُرْعة، وتوجَّه في الحَالِ إلى غُرفَةِ الأسير، ودخلَ علَيه، ففُوجِئَ به الأميرُ غاضبًا وقد احمرَّتْ عيناه، والخنجرُ يلمَعُ في يَده! قالَ قربالُ، وهُو يكادُ يتميَّزُ من الغَيْظ:

– لقَد تبِعُوني! إنَّهم قادمونَ، قادمونَ لإنقَاذِك وقَتْلِي! أنتَ الذي أخبرتَهم بطريقَة مَا!

وأظهرَ الأميرُ البراءةَ، وقالَ:

– أنَا؟! كيفَ وأنَا لَم أغَادِرْ المكانَ؟!

– أتَتَغَابَى وتَسْتَغْبِيني؟! غِلافُ وسَادتك كانَ رسالةً واضحةً تدلُّ على وُجُودِك. وفي الحقيقَةِ، أنَا البليدُ الذي

أوقعَني طَمَعي في فخِّك! ولكنَّ الكلمةَ الأخيرةَ لَن تكونَ لكَ!

وتقدَّم منْه وأمسكَ بشَعْرِه الطَّويلِ، ولَوَاه حولَ معْصَمِه، ووضع الخِنجَرَ على عُنقِه... فقالَ الأميرُ، وهُو يقاوِمُ الرُّعبَ الذي استولَى علَيه، ويتمسَّكُ بأَهْدابِ الحَياةِ المُنْفَلتَةِ:

- إذا قتلتَني فستقتلُ آخِرَ فُرصةٍ لِنجَاتِك!

ولَم يكُن قُربالُ أقلَّ رُعبًا ويأسًا من أسيرِه، فسألَه:

- أيَّة فُرصةٍ؟

- تهَديدُ القَادمينَ بقَتلْي إذَا هُم لَمْ يُخْلُو سبيلَك.

وأُعجِبَ قربالُ بالفِكْرَة، وقرر تنفيذَها. وسألَ الأميرَ:

- ماذَا أفعلُ، إذا قَبِلُوا تَسْريحي ظاهريًّا، ثم انقلبُوا ضِدِّي؟

- لا تخَفْ! ستأخذُني مَعك إلى دَاخلِ الغَابةِ التي تعرِفُها جيداً. وسآمرُهم أناَ بالبَقاءِ هُنَا نصفَ نهَارٍ كَاملٍ، حتى تبتعِدَ أنتَ عن مَدَى شمِّ الكلابِ. وعندها تتركُني وتدخلُ المملكةَ المجاورةَ. ولن يستطيعَ أحدٌ من الجُنودِ مطاردتَك هناكَ.

فنظرَ إليه قربالُ بارتيَابٍ، وسألَ:

– ومَن يضمنُ لي أنَّك لا تنصُبُ لي فخًّا آخرَ؟

– لَو كُنتَ في مَكَاني، هَل كَنتَ تغامرُ بحيَاتك وتلعبُ لعبةَ نَصْبِ الفخَاخِ؟

فارتخَت قبضةُ الجزَّارِ عَن شعْرِ الأميرِ، وبدَا علَيه كأنَّه يُقَلِّبُ الفكرةَ على وُجُوهِهَا، فقاطَع الأميرُ تفكيرَه قائلاً:

– هناكَ حلٌّ آخرُ.

فسألَ قربالُ بلهفَةٍ:

– ما هُوَ؟

– أن تستسلِمَ لي الآنَ، وتضعَ السِّلاحَ، وتُقبِّلَ الأرضَ بينَ يديَّ. فإِذَا دخلَ رِجَالي ووجدوكَ كذلكَ، فلَن يؤذُوك. وسآخذُك أسيرًا إِلى قَصْري، وأُدخِلُكَ السجنَ حتَّى تهدأَ خواطرُ شَعْبي. وفي أوَّلِ مناسَبةٍ أو عيدٍ أعفُو عنكَ، وتصبَحُ مواطِنًا عاديًّا ردَّ مَا كَان عَلَيه من دَيْنٍ لبلَدِه، وتابَ عن ذنُوبِه. ولن تَضْطَرَّ إِلى الهُروبِ والاغترَابِ طولَ حَيَاتِك. ولَن تعودَ إِلى قَطْعِ الطَّريقِ، لأنِّي سأعلِّمُك الخياطةَ والطرزَ، وستعيشُ بالمهنَةِ الجَديَدةِ حياةً طيبةً كريمةً.

وغابَ ذهنُ قربَال، وهو يفكّرُ في حَياةِ الحرِّيَّةِ والاستقَامةِ والعَـيْشِ بينَ النَّاسِ، والزَّوَاجِ وإنجَـابِ الأطْفَـالِ، ولَعبِ الكُرَةِ والتنزُّهِ في أيَّامِ العُطَلِ والأعيَادِ، والشُّعُورِ بالأمْنِ والطُّمأنينَةِ من مُطَاردَةِ العَدَالةِ.

وأخرجَه من تَفْكيره العَميق نباحُ كَلبٍ ضَارٍ، انقضَّ عَلَيْه من النَّافـذةِ، وغـرزَ أنيـابَه في رُسْغِ يَدِه التي تحـمِلُ الخنجـرَ، فسقطَ الخنجرُ بعيداً. وفي اللَّحْظَةِ نفسِها قفزَ رئيسُ الحَرَسِ من النَّافـذةِ نفسِـهـا، ودخلَ كلبٌ آخـرُ، من بَابِ الغُرْفَـة، يتـبعُـه سايِسٌ، وتبعَهُـمـا بقيـةُ الرِّجالِ، واجـتـمعُوا حـولَ أميـرهِمْ بَدْرِ الزَّمانِ، يُهنِّئونَه بالسَّلامةِ، ويقبِّلونَ رأسَه ويدَيْه وأطرافَه.

وأمرَ الأميرُ بإبعَادِ الكلاب عَن قربَالَ، وبعدَمِ إيذَائه. وحينَ هَمَّ الرجالُ بفَكِّ وثاقِ الأميرِ مَنَعَهم، وأشارَ إلى قربَالَ، قائلاً:

– أنتَ الذي أوْثَقْتَني، وأنتَ الذي ستفُكُّ وَثاقي.

فقالَ قربالُ، وهو يفتحُ قُفلَ السلسلةِ عن سَاقِ الأميرِ:

– خـدعـتَني بكَلامِك المَعْسُولِ! كنتَ تعرفُ بالضَّبطِ ما سيحدُثُ.

فقالَ الأميرُ وهُو يدلِّكُ أثَر القَيْدِ الحديديِّ علَى سَاقه:

- لا، بَل أنتَ الذي أوقعتَ نَفْسَك في الفَخِّ! فخ التردُّدِ والتذبذُبِ وعدَمِ الحَسْمِ. وهو فخٌّ أقعُ فيه كلَّ يَومٍ، وأنَا علَى كُرسيِّ الحُكمِ. فالقرارُ الصَّائبُ لا يأتي سَهلاً ولا بالسُّرعةِ المَطْلوبةِ في أوقَات الشَّدائدِ! والقرارُ قَد يرفعُ أمَّةً وقَد يُذلُّ أخرَى، وقَد أوقعتُكَ في فَخِّ التردُّدِ كَسْبًا للوَقْتِ، ودفاعًا عن حَياتي. ولَو كنتُ تركتُ لك خياراً واحداً لما انتهَتْ محنَتي بهَذه السُّهولَةِ والسُّرعةِ.

- وماذَا ستفعلُ بي الآنَ، أيُّها الأميرُ؟

- لَم أكُن حُرًّا حينَ وعدتُك بالعَفْو، ومن حقِّي أنْ أَخْلُفَ وَعْدي.

وانقبضَ صَدْرُ الجزَّارِ الذي أصبحَ أسيرًا، وتجهَّمَ وجهُه، وتصوَّرَ نفسَه يُساقُ إلى سَاحَةِ الإعدَامِ، والجَمَاهيرُ الغَفيرةُ تتزاحمُ وتتدافعُ لتتفَرَّجَ علَيه، وترفعَ عقائرَها بالهُتَافِ بحيَاة العَدالةِ، ويتقدَّمُ بعضُها لرَجْمه بالحجَارةِ.

ثم تخيَّلَ سيفَ الجَلادِ، كمَا رآهُ في سَاحةِ المدينَةِ وهُو

غـلامٌ صَـغـيـرٌ، رَآه يرتفعُ في الفَـضـاءِ، ثـم يَهْـوي علـى عُنقـه، فـيطيِّـرُ رأسَـه بضَـربْةٍ واحـدَةٍ، فـيـتـدحـرجُ الرأسُ علَـى الأرْض، وعينَاهُ مفتوحتَانِ، ولسانُه يرتعِشُ بينَ أسنَانه . . .

مَرَّ كلُّ ذلكَ في خَيالِه في رَمْشَةَ عَيْنٍ.

ولكنَّ الأميرَ ابتسمَ، وقالَ:

– من حـقِّي أن أنفِّـذَ فـيكَ كُلَّ مـا كنتَ تتـخـيَّلُه في هَذه اللَّحظَةِ! ولكنَّ والدي - رحـمـهُ اللهُ - علَّمَـني أن أُكـرمَ مَن شَاركوني الخبزَ والملحَ. وقد أكَلْنا معًا مدةً طويلةً!

فـارتمَى قربالُ علَى رجلَي الأميرِ وأخذَ يقبِّلُهـمـا والدموعُ تنهـمرُ من عَيْنَيه، وهو يطلبُ المغفرةَ، ويؤكِّدُ للأميـرِ أنَّ هذه كـانَت أوَّلَ سابقَـةٍ من نَوْعِهـا في حَيَاته، وأنَّه لَـم يسبِقْ لَه أن ذبحَ أحداً، ويقسِمُ ألاَّ يعودَ أبداً إلى قَطْعِ الطَّريقِ.

وأمرَ الأميرُ رئيسَ حرسِه بأنْ يأخذَ الأسيرَ، ويقدِّمَه للعدَالة لتقولَ فيه كلمَتَها كمَا جَرَتْ بذلكَ عادةُ البلادِ. ووعدَ الأسيرَ بأنْ يعفوَ عَنه إذا ثبتَ حقًّا أنّه لَم يقتُلْ أحداً. فانكبَّ قربالُ على يَدَيْهِ يقبِّلُهما، ويدعُو لَه بتَحقيقِ كلِّ ما يتمنَّاه!

وفي اللحظةِ نفسِها دخلَتِ الأميرةُ جمانةُ، وارتمَتْ في حِضْنِ زَوْجِها، فضمَّها إلى صَدْرِه، ودموعُها تَجري من شدَّةِ الفَرَحِ والارتيَاحِ!

* * *

وفي طَريقِ عَودةِ المَوْكبِ الأميريِّ إلى العاصمَةِ طلبَت جمانةُ من زَوْجِها أن يحكيَ لَها ما حدثَ، فصعُبَ عليه أن يعترِفَ لهَا بكلِّ ما تعرَّضَ له من إهانَات، على يَدِ الجزَّارِ قَاطع الطَّريقِ، فقالَ لها:

– سأَحْكي لَكِ بعدَ أن أستريحَ من هَذه المِحْنَةِ. ولكنْ يمكنُني أن أقولَ لَكِ إنَّ الفضلَ في نجَاتي من المَوْتِ وبقَائي علَى قَيْدِ الحَياةِ يرجعُ إلَيْك.

فاستغربَتِ الأميرةُ جمانةُ قولَه، وسألتْ:

– وكيفَ كانَ ذلكَ، يا مولايَ؟!

فحكَى لَها كَيف أنَّ معرفَتَه بالتَّفصيلِ والخيَاطةِ والطرْزِ جعلَتْه يؤثِّرُ على قَرَارِ الجزارِ ويؤجِّلُ ذبحَه له. وقالَ لَها إنه قرَّر أنْ يجعلَ المهنَ اليدويةَ من المقرَّرَاتِ الدراسيَّة بجَميع مَدَارسِ بلادهِ. وأحسَّتِ الأميرةُ بسَعادةٍ لا تقدَّرُ.

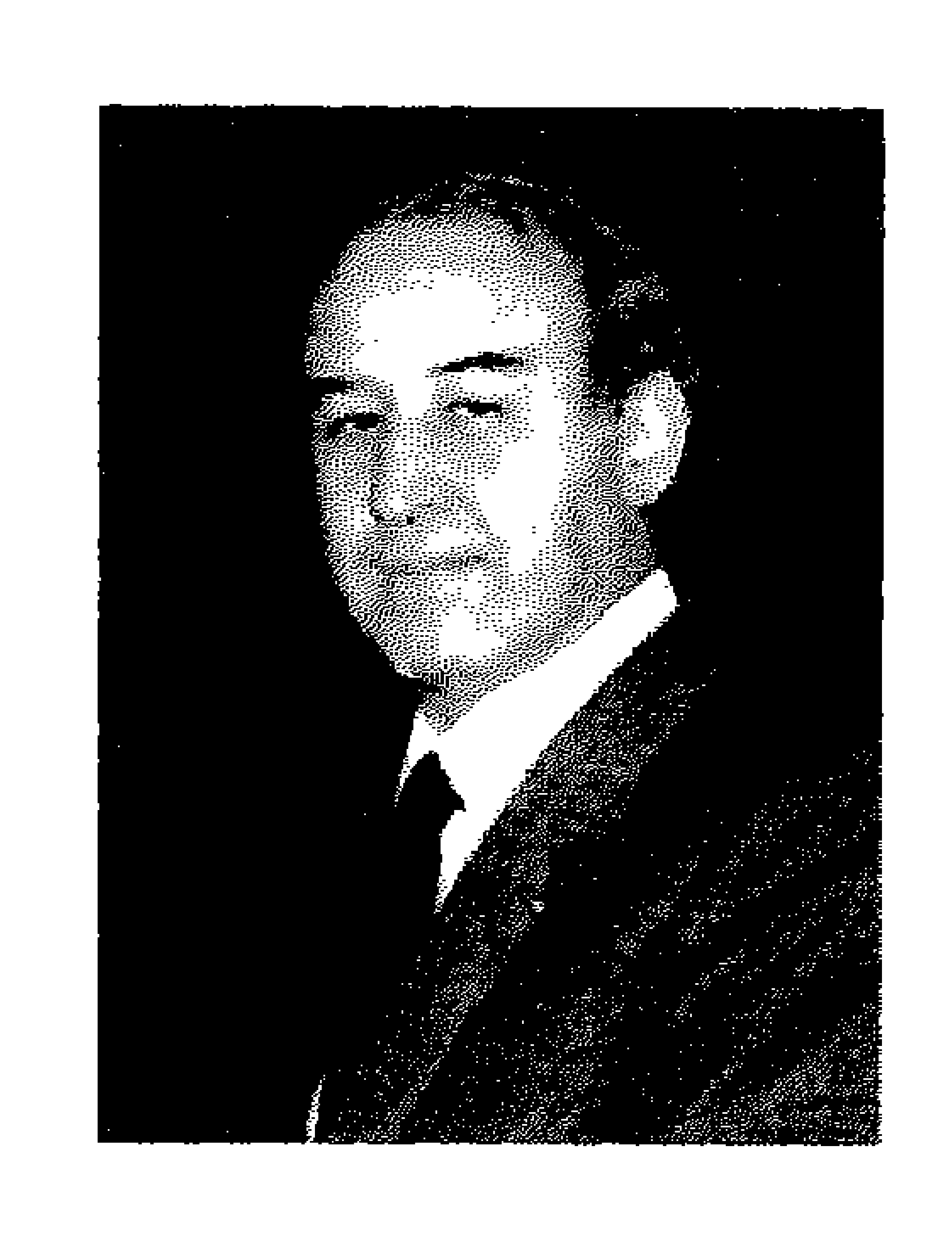
وعلَى بَابِ العاصمَةِ استقبلَتِ الموكبَ الأميريَّ جماهيرُ الشَّعْبِ بالهتَاف بحيَاة الأمير الشَّابِّ وزَوْجَته. فقد شاعَ خبرُ اختفَائه في اليومِ نَفْسِه الذي استرجعَ فيه حُريَّتَه، وعادَ إلى عاصمَتِه وشَعْبِه.

واحـتـفـلَ الناسُ سـبـعـةَ أيامٍ بليـاليـهَـا، وأقـيـمَـتِ المآدبُ وصَلَواتُ الشُّكرِ للَّهِ على عَوْدَةِ الأميرِ بَدْرِ الزمانِ.

وجـاءَ أهلُ الأمـيـرَةِ جـمـانة وملوكُ وأمراءُ المَمَـالكِ المجاورَةِ لتـهنئَتـه بسَلامـةِ عَـوْدَتـه، وكـانَ كلُّ ذلـكَ بمثـابَة عُـرْسٍ جَـديدٍ للأميرِ بَدْرِ الزَّمانِ وزَوْجَتِه الشابَّة الجَميلة.


العبيكان
Obeikan
Printing&Packaging

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي ، الحاصل على جائزة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » .

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس ، وخياله الخصب ، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى ، ومن عالم إلى آخر . يقرد ... اث الماضي البعيد ، ويلقي الأضواء على عوا ... ن ، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض ... ة ؛ فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية ... ية الحديثة للشباب في العالم العربي .

Bibliotheca Alexandrina
0359527
YP
2.736
28am

٧-٩٩٩-٢٠-٩٩٦٠



7000392

